حول المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية

(ماتسبن)

بقلم: غسان كنفاني

ربما كانت ولادة « المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية » (*) المعروفة باسم ماتسبن (الوصلة ـ وهو اسم مجلتها) من اهم المظاهر ذات المغزى التاريخي التي تحدث في اسرائيل منذ انشائها ، ولعلها تشكل ، من الناحية الرمزية ، الحدث الماكس لظاهرة تحول بعض التنظيمات الاشتراكية الصغيرة في اوروبا الشرقية في مطلع هذا القرن الى تنظيمات صهيونية ، هذا التحول الذي اعتبر اشارة رمزية الى بدء فترة من المد الصهيوني توجت فيما بعد بانشاء اسرائيل ، ولعل ما يجعل هذه « الرمزية » اكثر اكتمالا هو ان بعض العناصر الرائدة في الـ « ماتسبن » كانت جزءا مما يسمى باليسار الصهيوني حتى وقت قريب .

والحقيقة ان المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية لم تعرف في بعض الاوساط العربية الا بعد ١٩٦٧ ، اذ ان وجودها انذاك ، وسط المد الاسرائيلي العدواني ، شكل مظهرا شجاعا في وقت كان فيه اليسار الصهيوني (مثل المابام) يغرق في وحل العنصرية والامبريالية والرجعية حتى اذنيه ، فيما اخذ الشيوعيون « راكاح » يعمنون في التاكيد على « صحة » موقفهم الاول: قبول الكيان الاسرائيلي ، والنضال من اجل اسقاط الطبقة الحاكمة الآن داخله .

ولعل مقالات موشيه ماخوفر ، التي نشر جزء منها في « اللوموند » ، كانت هي اول تعريف لبعض قطاعات الراي العام العربي على ظاهرة « ماتسبن » ، ولا شك ان اسناد المنطق هذا قد اسمع الاذن العربية لهجة جريئة كان الكثيرون يعتقدون ان الواقع الاسرائيلي لن يطلع على الاطلاق باتباع ما تماثلها .

وبعد ذلك صار الطلاب العرب في اوروبا يدهشون عندما يرون شبابا اسرائيليين يتصدون لمناقشة مندوبي الدعاية الرسمين لاسرائيل ، في محاضرات عامة في العواصم الاوروبية ، ويواجهونهم بمنطق ثوري مدعوم بالارقام وبالحقائق ، وينجحون في سحق المنطق الصهيوني، علنا ، ولاول مرة في اوروبا منذ فترة طويلة .

والواقع ان نشاط شبان « الماتسبن » هو ، في الدرجة الاولى ، الذي دفع الحركة الصهيونية في الفترة التي اعقبت حرب حزيران ، الى الدعوة لمؤتمر للشباب الصهيوني ، هوفه الاول هو تطوير المفاهيم الصهيونية لتصبح ملائمة لروح شباب هذا العصر !

ان القوة والشجاعة اللتين دعما المنطق الثوري والعلمي ، لشبان يهود اسرائيليين وغير اسرائيليين ، القسم الاكبر منهم من او مؤيد للـ « ماتسبن » ، هما اللتان ساهمتا جيدا في تحريك اوساط الحركات اليسارية الطلابية في اوروبا ، بواسطة الاستعادة من الجو الذي تركه عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧ في العالم .

والصحيح ان ردة الفعل الصهيونية لم تقصر على محاولة تجديد دماء منظمة الشباب في الحركة الصهيونية (والاستفادة كليا من التراث الذي بناه « المابام » في اوساط « اليسار » العالمي في العشرين سنة الماضية ، وكذلك جماعة « الفنيري » ولكنها تعدت ذلك الى تنظيم عمليات اعتداء على افراد « الماتسبن » ، الى حد يعرف فيه الطلاب العرب في فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة والمانيا الغربية ان حماسية الصهاينة ازاء اليسار الشاب الذي يمثله اعضاء الماتسبن، كانت اكثر عنفا وسرعة من حماسيهم ازاء نشاط الطلاب العرب ، او الاوروبيين ، على ان هذا الفمع ـ الذي عكس كمية ونوعية الخشية الصهيونية من ظواهر من هذا النوع ، سبب شرخا لم نتائجه ـ لم يؤد الى تخويف هذه العناصر التي لا بد من الشهادة بشجاعتها واستقامتها .

وقد لجأت السلطات الاسرائيلية الى عدة اشكال اخرى من القمع ، بينها ـ بالطبعة ـ دس عناصر من « الشن بت » المخابرات ، بين صفوف افراد الماتسبن خصوصا في لندن ، الا ان هذا الاسلوب ، بدوره ، قد فشل في اطفاء هذه الظاهرة .

ان عددا قليلا ، ولكن شديد النشاط ، من اعضاء الماتسبن ، بمساعدة مراكز الاعلام التي يهيمن عليها التروتسكيون في فرنسا وانكلترا قد نجحت في ان تجعل سمعة الماتسبن كبيرة خارج اسرائيل ، ولا ريب ان لمثل هذا التكبير في الاعلام حسناته ، ولكن له سيئة كبرى وهي تنمية اعتقاد لدى الكثيرين بتوقع انجاز مهمات كبيرة لا يستطيع الحجم الحقيقي لهذا التنظيم ان ينجزها ، وبالتالي تسبيب خيبة امل غير مبررة على المدى القريب .

ان القيمة الاساسية لمنظمة الاشتراكيين الاسرائيليين ، كما تظهر بوضوح في الدراسة التي بين ايدينا ، (والتي هي فيما نعلم الاولى من نوعها بالعربية كما باللغات الاجنبية) تكمن بالدرجة الاولى في صواب وجراة وعلمية تحليلها لتاريخ القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية، وهو تحليل ربما كان من اكثر التحليلات حول هذا الموضوع نضوجا وعمقا وغنى ، كما ان كمية الصواب في الاستنتاجات المنبثقة عن هذا التحليل هي كمية مدهشة ، والحقيقة ان كتابات « الماتسبن » اكثر تفوقا بما لا يقارن من نشاطها، ومع ذلك فان كمية التمرح في هذه الكتابات كبيرة: ان الكثيرين يعتقدون ان منشورات وتحليلات الماتسبن قبل ١٩٦٧ هي افضل من تلك التي كتبت بعد الحرب ، وهذه ظاهرة واحدة فقط من ظواهر تطور الخط الفكري في « الماتسبن » ، وهو تطور لا نطيه هذه الدراسة ، التي يبدو انها تناولت الواقع الايديولوجي للماتسبن في لحظة معينة .

ولعل هذا التطور الكبير في الخط الفكري « للماتسبن » كان يخفي داخله تيارات متباينة، عبرت فيما بعد (اواخر ١٩٧٠) عن نفسها بالانشقاق الذي يبدو للوهلة الاولى وكأنه « تشرذم » ، ويظهر هذا التشرذم واضحا عندما نقرأ في ملحق الدراسة ، المقال الذي عنوانه : « الجراة على النضال » والذي كتب قبل الانشقاق ، ثم نقرأ البيان الذي اصدره فريق كاتب المقال المذكور ، الاتحاد الشيوعي الثوري، كبرنامج عمل ، فبين هذين المقالين فارق ضخم بين التشخيص الذي عرضه المقال الاول، والبرنامج الذي طرحه البيان الثاني .

لقد اكدنا على ظاهرة التطور المتواصل في الخط الايديولوجي والسياسي « للماتسبن » ، كما حدث منذ ١٩٦٢ حتى اواخر ١٩٧٠، وسلسلة الانشقاقات والتجتحات التي حدثت فيه ، وذلك كي يصبح بوسعنا ادراك ان الدراسة التي بين ايدينا لا يمكن ان تعني موقفا نهائيا ، وانها خطوة في مسيرة التطور التي سلكها منظمة الاشتراكيين الاسرائيليين منذ تاسيسها .

وحتى الجناح الجديد « الاتحاد الشيوعي الثوري » ، الذي يوصف بانه قريب من « الماوية» فان برنامجه الذي بين ايدينا لا يقول لنا الا كم هو بعيد عنها ، ولا ريب انه من حقنا بالدهاشة توقع تطور كبير في هذا البرنامج خلال المراحل المقبلة .

على انه ، بالنسبة لنا ، فان كل هذه النواحي الايجابية يجب الا تعمى انه من الضروري التمتر على النواحي السلبية : فاذا كان صحيحا ان « الماتسبن » ، كما يقول الكثيرون هو دليل على حدة التناقض الكامن في المجتمع الاسرائيلي، واذا كان صحيحا ايضا ان نشاط « الماتسبن » السياسي سيؤدي الى مضاعفة حدة هذا التناقض ، وسيعمل من خلال التحريض والدعاية والتوعية على خلق شرائح معارضة متزايدة القيمة والحجم ، واذا كان صحيحا ثالثا انه ينبغي مساندة نشاط ماتسبن ، وتشجيعه ، ودعمه بمختلف الوسائل لانه يؤدي في نهاية التحليل الى واقع هو في مصلحة حركة التحرر الفلسطيني والعربي ، اذا كان ذلك كله صحيحا ، فانه من الصحيح ايضا ان النظرة النقدية لهذه الظاهرة هي ضرورية ، من الناحية العلمية والسياسية، للتوصل الى تقدير حقيقي للموقف ، وللاسهام في الوصول الى الاستنتاجات الصحيحة .

ولهذا بالذات ، لا بد من وضع اطار من الملاحظات ، تتعلق بالدراسة التي بين ايدينا ، وهي ملاحظات من نوعين ، النوع الاول منها يتعلق بمنهج هذه الدراسة ، والثاني بمضمون الافكار التي جرى عرضها .

● اولا : ان مقدمة المؤلف تؤكد على ان دراستها هي « مجرد تلخيص وعرض » ، وهي كذلك في الواقع ، ولكن هذا بالذات هو ما يدعو الى تنبيه « الحس النقدي » ، اذا جاز التعبير، عند قراءة الدراسة ، هذه الدراسة التي جاءت مصادرها ـ ربما لاسباب واقعية ـ في مجموعها ، من « الماتسبن » ذاتها .

وبالاضافة لذلك فان هذه الدراسة لا تتعرض ـ كما اشرنا ـ الى خط التطور الايديولوجي الذي طرأ على المنظمة منذ تاسيسها ، وكذلك فهي لا تتعرض باهتمام كبير لحقيقة حجم المنظمة المذكورة على صعيد الواقع السياسي في اسرائيل، او لواقع البنية الطبقية للمنظمة ، او لواقع تركيبها التنظيمي .

وربما يؤدي هذا كله الى قليل من الخلط في الامور عند القارىء ، اذ ان هناك فارقا كبيرا بين عرض لاراء تقدمية نعبر عن نفسها بصورة من الصور داخل اسرائيل ، وبين الحديث عن منظمة سياسية بصفتها جزءا محوريا من عملية الصراع والتناقض داخل اسرائيل .

● ثانيا : من الضروري ان ننتبه القارىء الى ما يلي : ان منظمة « الماتسبن » منظمة صغيرة ، تشكل ظاهرة اخرى معا تشكل قوة سياسية او تيارا ثوريا داخل اسرائيل ، وهي مقتصرة على عدد من المثقفين الراديكاليين الذين يعودون في اصلهم الطبقي الى البورجوازية الصغيرة ، والواقع ان اهمية « الماتسبن » ، على وجه التحديد ، تعود الى كونها « اشارة اولية » ، ودليلا قويا على فشل « الحل الصهيوني » ،ومن الخطا النظر اليها على انها قوة سياسية ، او انها تعبير مبلور عن تيار سياسي موجود في اسرائيل حاليا .

ان كثيرا من التقدميين اليهود في العالم قد جاهروا بآراء ماركسية وتحليلات جريئة للمجتمع الصهيوني في فلسطين المحتلة ، والواقع ان رجال « الماتسبن » ينتسبون الى هؤلاء اكثر مما ينتسبون الى البنية السياسية في اسرائيل .

وهذه الملاحظة مهمة للغاية ، لان دراسة الماتسبن ، كي تكون مفيدة ، يجب ان تجري على الدوام من خلال وضع هذه الظاهرة في سياق ما ، ولا يكفي النظر التجريدي الى الاراء النظرية التي يرفعونها .

● ثالثا : ان سبب « شهرة » الماتسبن لا تعود الى فعاليتهم الداخلية (مثل الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، راكاح ، مثلا ـ او حتى مجموعة الفنيري) ، ولكنها تعود بالدرجة الاولى الى الجهد الاعلامي الذي بذلته «الاممية الرابعة» في باريس للروج لهم ، وبالدرجة الثانية الى ما روجه بعض تنظيمات المقاومة عن « صلات نضالية » مع الماتسبن ، وبالدرجة الثالثة الى المجلة التي اصدرها عدد منهم في لندن .

● رابعا : ان الاطار التنظيمي والايديولوجي للماتسبن اطار فضفاض ، فمن المعروف ان كثيرا من كتابها ينتمون الى التروتسكية ، وبعضهم لا يفعلون ذلك ، ومن الصعب التعرف كيف امكان العمل من خلال واقع كهذا الواقع ، وبمقال « الجراة على النضال » هو دليل على ان اكثر اجزاء الدراسة صدقا من الناحية الموضوعية ، وهو يعكس على وجه التحديد الايديولوجي والتنظيمي للمنظمة .

● خامسا : من الناحية العملية ، ماتسبن اساسية يجب اعتمادها عند دراسة « شكل النضال » ، وهذه مسالة مهمة حين يكون الموضوع موضوع منظمة ماركسية وهي مسالة هيئة دراسية .

وفي هذا النطاق ، يجب تسجيل الملاحظات الاساسية التالية :

هنالك هوة من الفراغ ، تكاد تكون فاغرة الضخامة ومستحيلة العبور ، بين الحس الاستراتيجي الذي ترسمه المنظمة ، وبين الحس الاصيل وجناحها المتشق ، وبين خط المنظمة التي يجري تجاهلها بصورة مدهشة طوال الدراسة ، رسم الاهداف الستراتيجية البعيدة المدى ، ويخيل الى ان هذه الهوة ، وهي الهوة التي لا يكف اعضاء الماتسبن ، وهي الهوة التي تبدو مهمة على وجه التحديد لكونها دليل على ان النظرية عمل وليس نظرية فحسب .

وعلى العكس ، فانه في الوقت الذي يقول « الاتحاد الشيوعي الثوري » بان الماتسبن عبر عن انشقاق وانعدام تخطيط استراتيجية سياسية والعمل وجود اطار تنظيمي لاستيعاب ذلك ، فان البرنامج السياسي الذي يطرحه كبديل لا يحتوي على « خطة عمل » ولا على تخطيط استراتيجي ، ومعنى اخر فان المنزلق الذي ادى الى الانشقاق يعود من جديد فيفرض نفسه على التنظيم .

ويعود ذلك الى جملة اسباب جوهرية ، ربما مجال تعدادها ، الا انه لا بد من الاشارة الى ان جميعها ناجمة بالدرجة الاولى عن الثغرة الكبرى المفتوحة بين الهدف الستراتيجي وبين شكل النضال الجدير بتحقيق مثل هذا الهدف ، وهي الثغرة التي لا يبدو في كتابات ماتسبن ما يشير الى الاكتراث بحلها

وبالاضافة لذلك ، فثمة مقطعات اخرى ، جوهرية ، لا يبدو ان المنظمة تنوي حسمها على صعيد العمل :

ا ـ ان كتابات المنظمة تتجه نحو الاصرار المواصل بالصف القومي والطبقي الاولي على ان له العرب داخل اسرائيل ، ومع ذلك فان هذا الاقرار لا يؤدي بالنتيجة الا الى الاتجاه نحو اعتماد شكل « النضال الطبقي » كي يكاد يعرف المنظمة بانه كيان كولونيالي .

وهذا شكل تناقضا من شانه شل فعالية ونتائج الموقف النظري .

ب ـ الشيء ذاته يكاد يكون منطبقا على الواقع الطبقي ، في تحليلات الماتسبن : فالرغم من الاقرار بالطبيعة الكولونيالية لاسرائيل فان المنظمة تستطيع ان تشهد حالة الصراع الطبقي داخل المجتمع الاسرائيلي ، ومع ذلك فهي لا تستطيع ان تضع حلا لهذا التناقض الكوكب :

● استفادة الطبقة العاملة الاسرائيلية من الواقع الكولونيالي الاسرائيلي .

● وجود تناقض ، في الوقت ذاته ، بين الطبقة المستغلة (بالكسر) والطبقات المستغلة ، داخل اسرائيل .

● وجود تناقض ، في نفس الوقت ، بين الواقع الكولونيالي لاسرائيل ، ككل ، وبين حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية . ان هذا التناقض المركب ، والجذري ، يحتاج حتما الى شكل اكثر رقيا من جميع اشكال النضال التي تطرحها المنظمة او توصي بها ، والاشكال التي من اليهود اكثرية سكانية تتحكم بالسلطة السياسية » والتي « تحول الى جزء لا يتجزأ من النظام الاستعماري » والتي هي في الاساس قومية لليهود » ثم ان الدولة القومية الفاشية برنامجها « احلال قوم محل العرب ، وليس مجرد استغلالهم » . .

.. وبعد ذلك كله يظل بالامكان في استنتاجات ماتسبن ، ليس فقط الغاء الصفة الصهيونية بالعنف دون تفريق هذه الدولة القومية ، ولكن ايضا بقاء الكيان السياسي هذا قائما ومتمتعا بكل حقوقه الاقليمية والكيانية ، ومستخدما حق تقرير المصير حتى في جانبه الانفصالي .

لعله من المفيد في هذه المناسبة ، ان نذكر انه في فترة متقاربة من ١ واسط القرن الماضي كان ماركسي ماركسيا حقيقيا في موقفين بديلين لاول وهلة متناقضين : فقد رفض ماركس في عام ١٩٤٨ فكرة اعطاء الشعب الشيكي ، انذاك ، حق تقرير المصير باعتباره يندرج تحت ما اطلق عليه اسم « الامم الرجعية » ، وفي نفس الوقت تقريبا اعتبر الوحدة الالمانية ، التي كانت انذاك تبنى بالادات البسماركية ، بانها مطلب وطني الى حد وصفها بانها « وحدتنا نحن » ، وفي كلا الموقفين ، اللذين بدوان لاول ووهلة متعارضين، لم يكن ماركس الا ماركسيا .

ان ما يهمنا ، من التعارض الذي تقع فيه « الماتسبن » بين دعوتها لهدم الصهيونية بالعنف، ثم الابعان بامكانية بقاء الكيان السياسي الذي انشاته وحتى المضي الى حد الدفاع عنه في حال استخدام العنف « لدمجه » ، ان ما يهمنا هنا هو ان هذا التعارض يمثل امكانية اقرار شكل نضالي يتناسب مع امكانية تحقيق هدف استراتيجي .

هذه كانت امثلة ، من الممكن المضي فيها بالتفاصيل ، حول مسالة اشكال النضال ، التي هي مسالة جوهرية ولا يمكن تجاهلها .

● سادسا : نقول ان مسالة اشكال النضال هي مسالة جوهرية ومحورية في هذا النطاق ، لاسباب عديدة ومحددة تتعلق بالواقع الموضوعي الراهن ، والذي من خلاله ينبغي قياس اتجاهات وحجوم وبرامج ومنطلقات المنظمات السياسية .

وفي ظل المجال بهذا الاشارة الى نقطتين اساسيتين من بين النقاط الكثيرة التي يمكن ادراجها تحت هذا البند :

ا ـ ان حركة المقاومة الفلسطينية ، التي كانت محصلة التطور الطويل للصراع الرهيب الذي فرض نفسه على هذه الحقبة من الزمن ، قد جاءت لتضع مستوى جديدا في النضال وهو مستوى الكفاح المسلح ، على اعتبار ان التناقضات الراهنة بين حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية ، وبين معسكر العدو الهائل الضخامة (اسرائيل ، الصهيونية ، الامبريالية والرجعية العربية) لا يمكن حسمها الا بالعنف الثوري ، لانها تشكل حلقة اساسية وصلبة ومبلورة كليا لحالة الصدام بين الامبريالية من جهة وبين حركات التحرر الوطني في « العالم الثالث » من جهة ثانية .

ولهذا الواقع نتائج على الصعيد العملي ، اذ ان القياسات تفصح بالدرجة الاولى متعلقة بمدى قرب او بعد اية حركة من الحركات التقدمية عن استراتيجية الكفاح المسلح هذه .

طبعا من غير الممكن تبسيط هذه المسالة بصورة ميكانيكية فهي مسالة شديدة التعقيد ، ولكن ما يهمنا هنا على وجه التحديد هو جواب السؤال التالي : اين تقع حركة « الماتسبن » من خريطة الكفاح المسلح الفلسطيني في مرحلته الراهنة ؟

ان هذا السؤال مهم ، ونحن لا نقصد ان جوابه يجب ان يكون شعاريا ، من نوع لا او نعم ، ولكن لا شك ان جوابه يتعلق بشكل مباشر بمخططات الماتسبن ، وبرنامجها السياسي ، وخطواتها التكتيكية ، وتحليلاتها ليس فقط للقوى التي يمكن دخولها الى خارطة الكفاح المسلح ، ولكن ايضا اسلوب وحيثيات هذا الدخول .

انه من المعروف ان مستقبل الكفاح المسلح مطالب بان يقدم للتجمع اليهودي في اسرائيل بديلا ، وهذا البديل ليس من السهل اعطاؤه صفة الاقناع لان عليه ان يتجاوز في قوته قوة الامتيازات التي تتمتع بها ، بصور متباينة ، مختلف الطبقات في اسرائيل .

ومثل هذا البديل لا يمكنه ان يصبح فعالا ، ويصبح قادرا على تفتيت التماسك الكولونيالي داخل مجتمع الاسرائيلي ، الا اذا كان قادرا ليس فقط على طرح صورة مقنعة ، ومحتملة وممكنة لمستقبل تنتفي فيه اشكال الاضطهاد الوطني والطبقي والعرقي والديني ، ولكن ايضا التناقض داخل اسرائيل الى مستوى الصدام ، ليس نظريا فحسب ، ولكن عمليا ايضا .

ان مثل هذه الصورة لا يمكن ان تحدث الا من خلال انجاز عناصر ونجمعات من داخل اسرائيل، اكثر فاكثر ، نحو الكفاح المسلح ، او بكلمة ادق نحو تكتيكات قادرة على الابصال الى ذلك الشكل من اشكال النضال .

وفي سبيل تحقيق ذلك النضال السياسي يجب ان ياخذ طريقا خاصا ، ولا يبدو انه بالامكان ان يكون هذا الطريق داخل اطار العائلة السياسية الاسرائيلية ، ومحتوى من قبل قنواتها ومؤسساتها، بل عليه الاتجاه في طريق مختلف كليا وجذريا .

وهكذا فان الاشارة الى